الثلاثة

نظرات تحليلية في القصة القرآنية

عبر ودروس

وردت هذه القصة فى آيات ثلاث من اواخر سورة التوبة ، وذلك فى قوله تعالى ((لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)) .

((ان مجرد ورود قصة المخلفين ــ على قصرها ــ فى سورة التوبة يفرغ عليها لونا مميزا ترتقى فيه العبرة الى قمتها . ذلك لأن السورة كلها معرض رهيب للجهاد والقتال والصراع النفسى ، تمر خلاله مواكب الناس مكشوفى القلوب والسرائر ، فيهم أهل النفاق الذين عجزوا عن مواجهة الاسلام بصراحة مشركى قريش ، فعمدوا للتسلل الى ايذاء النبى والمسلمين من سراديب الدسائس والتآمر والتمثيل المضلل .. وفيهم الاعراب الذين عجزوا أيضا عن مقاومة القوة الاسلامية ، فأعطوا طاعتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، متربصين بالاسلام الفرصة المواتية ، ليقلبوا طاعتهم تمردا يحرق الاخضر واليابس .. ثم فيهم الجماعة الجديدة التى فتحت قلوبها ومشاعرها لنور الله ، فهى تتلقى أشعة الوحى تربية نبوية ، تزكو بها النفوس ، وتصفو بها الضمائر ، ويستقيم بها الفكر ، فتنمو على هذا الهدى ((كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار)) .

وفى هذا الجو الرهيب الحبيب تكثر النذر والقوارع ، والأنباء الكاشفة لأحداث المستقبل ، والبشريات التى تعين للمترددين طريق النجاة ، وللمؤمنين المتقين عواقب الهداة ، بعد أن سلطت الأضواء على أوضاع الجميع ، فعلى

المخلّفون

الاستاذ محمد المجذوب
المدرس بالجامعة الاسلامية ـ المدينة المنورة

الميامن كتائب الايمان مرصوصة الصفوف، قد عرفت طريقها فى ضوء الوحى ، فهى تبذل كل شىء للعبور الى ضفة السعادة. وعلى الشمائل أوزاع الكفر والنفاق والانتهاز ، تغامر بكل وجودها ومصيرها ومواهبها لصد انطلاقة النور .. ولاستبقاء الحياة مغلفة بأسداف الظلام..

وقد جلت السورة الكريمة كل هذا وذاك ، ليكون الناس على بصيرة مما هم فيه ، وما هم مقبلون عليه ، « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » ..

وخلاصة الآيات الثلاث اخبار ربانى سعيد يعلن قبوله تعالى جهاد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار ، وثناءه عليهم بتحملهم أعباء السفر والقتال فى أشق غزوة صاحبوا فيها قائدهم الأعظم ..

وفى أثناء هذا الاخبار يأتى ذكر التردد الذى راود بعضهم عند تلقيهم دعوة الرسول من أجل الاعداد والتأهب لهذه الغزوة ، فاستكبروا السفر فى ذلك الحر المهلك ، وقارب التردد أن يثبطهم ، لو لم تتداركهم رحمة الله بتغليب ايمانهم على حب الراحة ، وتثبيتهم على سنن الطاعة ، فاستحقوا بذلك رضوان ربهم ، واطمئنان قلوبهم ، وهم الذين أشار اليهم بقوله « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » .

ثم يعقب ذلك مشهد الثلاثة ، الذين تخلفوا عن تلك الغزوة ، وحرموا أنفسهم مرافقة الرسول وجنوده ، ومشاركتهم فى الخير الجزيل الذى انتهوا اليه . وتغوص الآية الى مكنون صدورهم، فاذا هم فى غمرة حادة من الندم اللاذع ، يضيق فى أعينهم رحب الأرض ، ويضغط على صدورهم بأثقاله الفادحة ، وقد سد دونهم المنافذ ، فأيقنوا أن لا مهرب من قبضة العدالة الالهية ، الا بنفحة من الرحمة تهب عليهم من حيث لا يحتسبون ...ولكن هذا الحرج العميق سرعان ما يتلاشى عندما تأتى الخاتمة المحببة ببشرى المغفرة ، تنبئهم بأن الله قبل توبتهم ، وشملهم بعفوه ، بعد أن طهر الأسى كيانهم من امكان العودة الى مثل تلك الزلة الخطيرة .

وهكذا ختمت المأساة أبهج ختام ..

ثم تأتى الآية الثالثة ، وكأنها تقرير مستقل ، يوجه النداء الى المؤمنين كافة بأكرم أوصافهم ، ثم يعقب النداء بتوجيهين لا أحب منهما الى قلوبهم :

الثلاثة المخلفون

أمر بتقوى الله ، وأمر بالتزام صف الصادقين من عباده .

وبقليل من التأمل ندرك قوة العلاقة بين هذه الآية وسابقتها ، فهى تجىء كتعليل عميق للسر الذى من أجله استحق هؤلاء الثلاثة قرار العفو الاعلى.. انه التقوى ، التى تخلص القلوب لله وحده ، فتعصمها من اضمار مالا يرضاه، ايمانا بعلمه الذى لا يعزب عنه شىء . ثم الوقوف فى خط الصدق ، الذى يخلص اللسان من الباطل ، فلا يتحرك الا بالحق ، توقيرا لله الذى لا يرضى عن الكاذبين ..

فكأنه تعالى يقول للمؤمنين : هؤلاء زلت بهم قدمهم الى المعصية ، وكان فى وسعهم أن يدافعوا عن أنفسهم بغير الحق ، كما فعل المنافقون ، ولكنهم لم يفعلوا ؛ لأنهم آثروا متاعب الصادقين ، على مصير المنافقين .. فاجتهدوا أن تلتزموا صفاتهم التى بها استحقوا المغفرة .

هذه المعانى وحدها كافية لتجعل من الآيات الثلاث منهجا توجيهيا بعيد الاثر فى تكوين الضمير المسلم .. اذ تعطينا الخطوط الكبرى للشخصية المسلمة ، التى قد تزل ، ولكنها سرعان ما تعود الى الاستقامة ، فاذا هى مبصرة ، نادمة، تائبة ...

فاذا ما أنعمنا النظر فى بنائها التعبيرى شاهدنا التساوق العجيب بين اللفظ والمعنى ، بين القالب والمحتوى ، وذلك بعض مواطن الاعجاز .

ان لألفاظ الآيات أشعة خاصة ،تضىء ساحة المعانى بما تبرزه من صور الأحداث التى هى موضوع الآيات ، ومن خلجات النفوس التى حركتها هذه الأحداث ، فاذا القارىء يرى ويسمع ويعتبر فى آن واحد .

لننظر الى تكرار مشتقات التوبة خمس مرات . (تاب الله . تاب عليهم . تاب عليهم . ليتوبوا . التواب الرحيم..)

فهنا ايحاء ملح بجلال التوبة ، وجمال استعجالها ، من شأنه أن يدفع القارىء المؤمن الى التوبة دفعا ..

ثم لننظر الى هذه التعابير المفزعة . (ساعة العسرة . كاد يزيغ قلوب فريق منهم . ضاقت عليهم الأرض . ضاقت عليهم أنفسهم . لا ملجأ من الله الا اليه ...) .

فأنت لا تستطيع التصور النهائي لحدود العسرة التى احتوتها تلك الساعة .. ولا تستطيع كذلك ادراك نوع الزيغ الذى راود قلوب ذلك الفريق .. ولا يمكن لمفكر أن يحدد الصورة التى انكمشت اليها الأرض فى حسهم ، ولا الضيق الذى صارت اليه نفوسهم .. ولكنك تستشعر الواقع النفسى الذى عاشه أولئك الثلاثة ، والجو الخانق الذى عانوا ضغطه .. وجاهدوا للتخلص منه بكل طاقاتهم ، فلم يجدوا منفذا ولا ملاذا الا الاستسلام لأمر الله ، والضراعة اليه ..

فاذا قرأت بعد هذا . (يا أيها الذين آمنوا ..) فوجئت بمثل النسمة الناعمة تداعب وجهك بعد لذع السموم.. فتتنفس ، وتفتح للنفحة رئتيك .. وبذلك تتأهب لاستقبال الأمر الالهي الحبيب . (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين .) فالسبيل الوحيدة اذن للنجاة من كل هاتيك الأهوال محصورة فى نطاق التقوى ، والصدق .. وهما مجمع الفضائل ، ونهاية الشمائل التى يحبها الله .

على أنك مع ذلك كله لا تعرف من هؤلاء الثلاثة .. ولا موضوع التخلف أو الذنب الذى اقترفوه ، فجوزوا عليه بكل هذا البلاء .. فكأن القضية ليست قضية اشخاص أخطأوا فأنابوا بمقدار ما هى قضية نظام الهى يستهدف مجرد الردع عن مثل تلك الخطيئة ، وفتح أبواب التطهر من آثارها ، ـ للذين امتحنوا بنظير ذلك الموقف ...

غزوة تبوك

فاذا ما رجعنا الى الصحيح من أسباب النزول ، نستوضحها من تفاصيل الحدث وهوية أصحابه ، وجدنا أنفسنا أمام الخلاصة التالية .

تخلف كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن مرة عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، لغير عذر مشروع سوى ايثار الراحة ، والفرار من الحر الهائل الذى كانت تغلى به الصحراء حينذاك .. وكان المتخلفون سواهم فى المدينة غير قليل ، الا أنه ليس منهم الا مشبوه العقيدة ، معروف بالنفاق والرياء .. أما أشباههم من جنود الايمان وأهل السابقة ، فقد انتظموا فى الركب الغازى ، هاجرين الظل والماء والثمار ، ليتحملوا مع قائدهم المفدى أعباء الحر والجوع ، وأصناف العناء ، ايثارا لما عند الله من ثواب .

وبلغ الجهد بالغزاة المحتسبين أشده ، حتى كان الاثنان يقتسمان التمرة ، والثلاثة يتداولون البعير .. وقد أرهقهم العطش ، حتى أحسوا رقابهم ستنقطع ، وحتى لينحر الرجل بعيره ليعتصر فرثه فيشربه ، ثم يجعل ما بقى من فرثه على صدره ليبرد من وقدة الحر ...

ولكن الله يسر لرسوله وللمؤمنين بهذه الغزوة العسرة أفضل النتائج .. فجاسوا خلال ديار العدو من الروم ، دون أن يجرؤ على مواجهتهم ، وخضدوا شوكته بما عقدوه من مصالحات مع أشياعه من متنصرة العرب ، فى (أيلة وأذرح وتيماء ودومة الجندل) .. وحقق الله لرسوله الغاية العليا من هذه الغزوة ، اذ أشعر الروم ومن معهم من الطواغيت أن لا سبيل الى منع أشعة الاسلام من التدفق عبر الحدود ، التى يحبسون وراءها عقول الناس ، وأفهم المنافقين ومن وراءهم من اليهود أن الاسلام قد جاء ليبقى ، فلا طاقة لأية قوة بمقاومته ، حتى ولو كانت هذه القوة دولة الروم ، التى تبسط سلطان بغيها وارهابها على القارات الثلاث ...

وهكذا عاد رسول الله ومعه الألوف الثلاثون من جنوده الى عاصمة الاسلام ، تقدمهم البشريات ، وتستقبلهم الولائد بالنشيد الخالد .

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

وهنا أقبل مرضى القلوب الى رسول الله ، يعتذرون عن تخلفهم ، ويختلقون له المسوغات ، ويحلفون على ذلك .. فيقبل منهم علانيتهم ، ويكل الى الله سرائرهم ..

عزلهم عن المجتمع

ولم يكن بد للثلاثة من مواجهة النبى صلى الله عليه وسلم والادلاء بما لديهم من الأسباب التى قسرتهم على التخلف ، فجاءوا يتعثرون ، فلما كانوا بين يديه أعلنوا افلاسهم من كل عذر ، بل لقد أكدوا له أنهم لم يكونوا يوما أقدر منهم على السفر فى ذلك اليوم ... فشهد لهم صلى الله عليه وسلم بالصدق ، وأخر البت بأمرهم حتى ينزل فيهم قضاء الله .. وقد اكتفى بعزلهم عن المجتمع

البقية على ص ٦٤ ، ٦٥

الاسلامى ، فنهى عن مخالطتهم وكلامهم، وفصل بينهم وبين أزواجهم ، الا زوجة هلال التى جاءت تستأذن رسول الله فى خدمته ، لأنه شيخ ضائع لا معين له ، فأذن لها على الا يقربها ..

وتتابعت الأيام ثقيلة مخيفة على هؤلاء المنفيين فى أهلهم ، لا يجدون من يرد عليهم تحية ، أو يؤنسهم باشارة ..وقد بلغ بهم الخوف ذروته أن يموتوا على هذه الحال ، فلا يصلى عليهم رسول الله ، أو يستأثر الله بنبيه ، فيستمر المسلمون على مقاطعتهم تنفيذا لأمره صلى الله عليه وسلم ..

وفى غمرة هذه المحنة .. يفاجأ كعب بمحنة من نوع آخر ما كان ليتوقع مثلها قط ، ذلك أن تاجرا من انباط الشام ، جاء المدينة ببضاعته ، فجعل يسأل عن كعب حتى قيض له من يدله عليه ، فمد يده اليه برسالة ملفوفة فى حرير ،يقول له فيها ملك غسان النصرانى . (.. أما بعد ، فقد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك ..).

وآلم كعبا ما فى هذه المراودة من اهانة له ، اذ طمع به أعداء الاسلام ، فهم يساومونه على مفارقة رسول الله والارتداد عن دين الله ... فبكى وناح على نفسه ، ثم قذف بالحرير وما فيه الى التنور ..

وتمت على هذا الوضع خمسون ليلة ، ما انقطع الثلاثة فيها عن بكاء ، ولم يستروحوا فيها نفحة عزاء .. (حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ...) فنزلت رحمة الله ببشريات المغفرة لهم ، واندفع الصحابة يركضون ليؤذنوهم بالفرج : وليقرأوا عليهم ما أنزل الله فيهم من آيات « التوبة » .. فكان ذلك اليوم عليهم خير أيامهم منذ ولدتهم أمهاتهم ...

ويقرأ المؤمن اليوم قصة المخلفين فى الكتاب الحكيم ، وفى كتب السنة الصحيحة ، فيحس بالقشعريرة تهزه ، وبالانفعال يهيجه ، حتى يفجر دموعه .. ولعله يتساءل عن السبب فى كل ذلك الذى يشعر به فلا يجد له تعليلا ،سوى تلك الوشائج من قرابة الروح ، تصل بينه وبين ذلك الرعيل الاثير ، فتجعله متجاوبا مع حركاته وسكناته ، يبكى لبكائه ، ويضحك لضحكه ، وينفعل بتجاربه، رغم ما يفصل بينهما من أبعاد القرون ..ولكن.. ومع ذلك قليلون الذين يفطنون الى عبر القصة ، ويحاولون أن يستخلصوا منها الخطوط التى يجب أن تحدد لهم معالم الطريق .

نحن أمام عبر وعظات

ان العبر فى القصة لعديدة ، ولا سبيل الى استيفائها كلها ، الا اذا أمكن تجميد الأحداث ، بحيث لا يقع منها غدا الا ما وقع حتى اليوم ... ولذلك لا مندوحة من الاقتصار على القليل ، الذى من حقه أن يعلمنا الكثير ..

فأولى هذه العبر : تنبثق من موضوع غزوة تبوك نفسها ، اذ كانت مناورة لا بد منها لردع العدو الرومى عن حدود الدولة النبوية ، بعد أن أثبتت محاولاته الكثيرة أنه يتربص بها الدوائر ، فلا ينفع فيه غير القوة .

وتأتى من بعد ثانية العبر متصلة بسابقتها اتصال المقدمة بالنتيجة : ذلك أن فكرة الردع تقتضى اعداد القوة الروحية ، التى تستهين بأشد المشاق لصيانة الوجود الاسلامى ، الذى لا يحترمه المخالفون له الا بمقدار ما يخافونه . ومن هنا كان توقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعد الغزوة فى أعسر الظروف .. حر فى الصحراء يلهب الجو ، ويشقق الارض ، ويجفف

الأعصاب ، وضيق فى التموين يفرض على الغزاة تقنينا لا يكاد يعيش عليه الانسان ، وشدة فى الزمن الذى تستكين فيه الطبيعة البشرية الى طلب الظل وانتظار الجنى ، والاستمتاع بثمرات الجهود ... وكان من معهود شأنه صلى الله عليه وسلم ألا يصرح بالوجهة التى يريد أن يجعلها مغزاه ، الا فى غزوة تبوك هذه ، فقد أعلنها للناس ، ليتخذوا الأهبة التى تتلائم مع بعد الشقة وشدة الزمان ، ولتكون محكا حاسما للنفوس ، فلا يستجيب لها الا من كانت مرضاة الله ورسوله أحب اليه من كل شىء ..

ثم تأتى الثالثة ، وتتجلى فى خروج المؤمنين جميعا ، على الرغم من تثبيط المنافقين ومؤامرات اليهود ، لم يتخلف منهم الا ضعيف لا يجد ما ينفقه ، ولا يملك ظهرا يحمله ، فعاد فائض العينين من الدمع حزنا ألا يجد الى مرافقة رسول الله سبيلا ... ثم هؤلاء الثلاثة الذين قدر الله أن يحرموا تلك النعمة ، ليكونوا فى النتيجة موضوع درس الهى تتناقله أجيال المؤمنين ، فيتعلمون منه كيف يؤثرون أمر الله ورسوله على راحتهم وأهليهم وأموالهم ..

وتأتينا رابعة العبر ماثلة فى وحدة الصف الاسلامى ، وتماسكه حول القيادة النبوية ، اذ ما كاد المسلمون يسمعون أمر رسول الله بمقاطعة المخلفين الثلاثة حتى عمدوا الى تنفيذه بدقة ، حتى الزوجة فارقت زوجها طواعية ، وحتى ليجد المخلف القطيعة من أقرب الناس اليه ، فلا يرد عليه سلاما ، ولا يستمع منه كلاما ... وحتى لنجد المحكوم نفسه مقيدا نفسه بالتزام الحكم ، فلا يرضى باستئذان رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجته بخدمته ، بل يأمرها بمفارقته حتى يقضى الله قضاءه فيه ..

ونستطلع العبرة الخامسة فنشهدها فى عدالتها العليا ، اذ كان المحكومون بها من ذوى السابقة والفضل ، ومنهم كعب بن مالك .. شهد بيعة العقبة ، ولم يتخلف عن غزاة الا بدرا ، التى لم يخرج فيها رسول الله بغية القتال ، ولم تكن المشاركة فيها عزيمة قاطعة ، بل رخصة مخيرة ... وقد حارب فى سبيل الله بسلاحى السيف واللسان ، اذ كان الى كونه فارسا باسلا ، شاعرا مفلقا ،أرسل الكثير من الشوارد مدحا للمصطفى صلى الله عليه وسلم ، واعزازا لدين الله ، ورغما لأعدائه .. ومع ذلك لم يعمل شيئا من بيانه البارع فى تزوير عذر ، أو تزويق وزر ، بل آثر الصدق فى الاقرار ، فكرمه الله بجعله مع رفيقيه من أئمة المتقين الأخيار .

ومجرد أخذ هؤلاء الصفوة بالعقوبة ، ثم تداركهم بالصفح والتوبة ، آية أخرى على أن الاستمرار على صالح العمل من خصائص الايمان الصحيح ، فلا تخفف سابقة التضحية من عواقب المعصية .. الا أن تتطهر القلوب من أوضار الذنوب ، بتوبة نصوح ، تؤكدها حرقة الندم على ما فات ، والتصميم القاطع على الاقلاع فيما هو آت ...

وأخيرا لعل أهم عبر القصة أنها درس من أيام النبوة ، فيه عبير الوحى ، ورحيق التربية المحمدية ، التى قدمت للتاريخ الانسانى النموذج الاكمل لخير أمة أخرجت للناس .. ومن أجل ذلك كان لزاما على المسلمين أن ينتفعوا بايحاءاتها الربانية ، ليعرفوا كيف يصبرون على التزام المنهج .. الذى لا سبيل غيره الى استعادة القيادة العالمية.

والقارىء المفتوح القلب حين يتتبع هاتيك العبر لا يفوته أن يستبين بعض جوانب الحكمة فى تتويج هذه السورة العظيمة بهذا الاسم ((سورة التوبة)) .